ليًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ.. وَطَعْنًا فِي الدِّينِ

كان من فضل الله على أمة الإسلام، أن وجهها من بداية الطريق إلى ما به يكون وجودها الذاتي المتميز، كيما تكون أبداً ـ وهي تنقاد لأحكام دينها القويم وتحتكم إلى المنهج الرباني ـ في موقف العطاء والتأثير، لا في موقف التقليد والتأثر غير المحمود.

وهذا الوجود المتميز، ليس جاهلية ولا تعالياً أجوف، ولكنه ثمرة خيِّرة من ثمرات الهداية التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام عن ربه عز وجل، ودُعوا هم ـ بحكم إيمانهم بها وكونها رسالة للعالمين ـ أن يبلغوها الناس، فيحملوا إليهم عطاءها، ويكونوا الأسوة العملية الصالحة، لمن يدعونهم إليها، ويحملون إليهم ذلك العطاء.

ومن خلال هذه المقولة الدقيقة: يتبدىٰ كمال الاتساق بينها، وبين ما درج عليه القرآن الكريم، كيف أنه كان لا يني ينبه المسلمين على أن يكونوا أبداً على النبع الأصيل، نوراً وهداية في كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام.... وأن يحذروا أيةَ بادرة من بوادر التقليد الأعمى، لمن ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أو الغفلة عن أضاليلهم المزخرفة ـ وبخاصة اليهود الذين غضب اللهُ عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير، والذين بسببٍ من نقضهم المواثيق مع الله ورسوله، وانحرافهم العمدي عن جادة الحق، وعبثهم العابث بكلام

الله، حيث تأويله على غير وجهه وتحريفُه عن مواضعه ـ حكم الله عليهم باللعن والطرد من رحمته سبحانه وتعالى.

ومن الآيات التي أضاءت سبيل هذه القضية الكبرىٰ في حياة المسلمين، وهم يجاهدون في شتى الميادين لبناء المجتمع المسلم.. ما جاء في سورة البقرة من نهي المؤمنين عن أن يقولوا في خطابهم للنبي ﷺ: «راعنا»، لما أن اليهود كانوا ينطقون بها، ولا يريدون ما يدل عليه ظاهر لفظها، ولكن يريدون معنى سيئاً يبطنونه، يحمل الانتقاص والاستهزاء، وهم يخاطبون من جحدوا نبوته وحقدوا عليه، محمداً عليه الصلاة والسلام.

وما نعنيه هنا في هذا الإطار هو قول الله تبارك وتعالى في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ وما بعدها.

وقد أوردت الروايات التي تدل على أن نهي المؤمنين عن أن يقولوا في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام: «راعنا» إنما كان بسبب استخدام اليهود للكلمة مصطلحاً سيئاً، يتصل بدخيلة نفوسهم، وما تنطوي عليه من الحقد والمكر، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

وآكد من هذا في الدلالة على أن اليهود حقاً، هم الذين كانوا يعمدون إلى تلك التورية بالكلمة، فيظهرون أنهم يريدون معناها العربي، مبطنين دلالتها السيئة في لغتهم، وما به يروون تعطشهم الدائم إلى أذى النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين، ولو بالكلمة يقولونها، والمصطلح يستخدمونه على وجه الباطنية، والخبث...

آكد من هذا: ما جاء في سورة النساء من التصريح بأنهم هم أصحاب تلك الفعلة الخبيثة، إذ جاء ذكر ذلك، ضمن عدد من خصالهم الذميمة التي كشف عنها القرآن الكريم، كيما يكون المسلمون – وهم يحملون رسالة الهداية للناس أجمعين، ويخوضون معارك التحدي – على بينة من أمرهم ويأخذوا حذرهم ذلكم قول الله العليم الخبير: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ... ﴾ الآية..

فأنت ترىٰ أن هذه الخلال الأثيمة جميعها، قد اجتمعت لهم بلا استثناء، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون للنبي عليه الصلاة والسلام، دونما ذرة من الحياء: سمعنا ما قلته يا محمد ونحن عاصون لا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، إذ إن السماع هنا سماعُ علم وإدراكٍ؛ فهم يقولون عن كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ما جرَّ عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة، كما جاء التصريح بذلك في آيات أخر؛ منها قوله تعالى خطاباً للمؤمنين بشأن اليهود:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

وليس ذلك فحسب: فهم يقولون له صلوات الله وسلامه عليه: «واسمع غير مسمع» قال ابن عباس: أي اسمع ما نقول لا سمعت، وهو ما رجحه الإمام الطبري على ما روي عن مجاهد والحسن، وجنح إليه الحافظ ابن كثير من أن المعنى: «واسمع غير مقبول منك» قال الحافظ ابن

كثير: وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله. ويقولون كذلك: «راعنا» يقولونها ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين، وهنا يكشف القرآن خبيئتهم، فهم يقولونها، ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين، إنهم لا يريدون ظاهر الكلمة، بل يوهمون أنهم يقولون أرعنا سمعك بقولهم «راعنا» والذي يريدونه على الحقيقة الرعونة أو معنىٰ آخر في لغتهم، ولهذا قال سبحانه عن هؤلاء المغضوب عليهم، الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ يعني بسببهم النبي ﷺ.

وهكذا تتبدى العلاقة ـ كما ذكرتُ آنفاً ضمن المنهج الرباني المتكامل، بين ما جاء في سورة البقرة، من نهي المؤمنين عن قول «راعنا» وبين ما جاء في سورة النساء، بأن الذين كانوا يلوون ألسنتهم بهذه الكلمة، هم اليهود، وأن على المسلمين ـ وقد أراد الله لهم أن يكونوا مصدر العطاء والتأثير على ساحة الهداية والحق ـ أن يكون لهم وجودهم المتميز بالإسلام، وأن يربؤوا بأنفسهم عن تقليد من يظهرون غير ما يبطنون، ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين، أو أن يغفلوا عن تلك الحرب غير المعلنة، المصحوبةِ بالنفاق والتمويه.

ومما يجب أن يستوقف المؤمن ـ وهو يعمل على الإفادة من هدي الكتاب الكريم ـ أن الآية الكريمة، لم تقتصر على نهي المؤمنين عن أن يقولوا: راعنا، ولكنها قدمت البديل، وكان البديل أن يقولوا: «انظرنا» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ أرأيت!! إنه الدرس العظيم على طريق الدعوة أن يقدم البديل الطيب عن الأمر المطلوب تركه، وإلا كان الضياع وكانت

الفوضى. وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أي وللكافرين بي وبرسولي ـ والذين يحملهم جحودهم، على الأقوال والأفعال التي تنمُّ عن مدى الحقد والكراهية للإسلام ونبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ـ العذاب الشديد الموجع.

ولكم يشفي نفسَ المؤمن، أن يرى الأمة، وقد تنبهت من رقادها، فاتخذت من هذه الآية ونظائرها في كتاب الله ـ والكتاب كله هداية ونور ـ نبراساً يضيء طريقها في مواجهة التحديات التي يشهرها اليهود وأعوانهم صباح مساء، أو يخفونها تحت ستار من المخادعة والمكر. إنها إن فعلت ذلك: سلمت لها ـ بعون الله ـ منطلقات المواجهة، وأمنت ـ بفضله سبحانه ـ مكر الليل والنهار من قبل أعداء تتلون عناوينهم، وتتعدد ميادين ما يبيتون من الأذى ـ دونما إخلال باتباع سنن الله في عمارة الأرض، وبناء الحضارة السليمة القويمة، امتداداً لما كانت عليه الحال أيام النصر والتمكين، والله محيط بالكافرين.

وَاسْمَعُوا.. وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ

من إعجاز الكتاب الكريم ـ وما أصدق إعجازه وأكمله ـ ما يرى من تكامل المنهج الرباني في تربية الأمة المسلمة، وتنبيهها على ما فيه سلامة الوجهة في أداء رسالتها، والحذر مما يقوم في وجهها من المعوقات. ومن ذلك: الكشف عن خبيئة يهود أيام التنزيل، في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، وهم الذين كانوا في ضواحي المدينة وفي خيبر، يكفرون، وينافقون إذا لزم الأمر، ولا يدعون باباً من أبواب الأذى إلا ولجوه، وقد رأينا من قبل ما هتكت الآيات في سورتي البقرة والنساء، من مكرهم، وما كشفت عن حقيقة ما يقصدون في قولهم لرسوله ﷺ: «راعنا» وكيف أمر المسلمون أن لا يخاطبوا رسولهم بهذه الكلمة، وأن يقولوا بدلاً عنها «انظرنا».

والحق أن في هذا التوجيه الرباني الكريم ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ قطعاً لدابر التقليد لأولئك المغضوب عليهم، قطعاً يمتد إلى كل تقليد يخالف عن الصراط السوي، وينير للأمة سبيل التحرك الإيجابي في تقويم البديل الصالح عن المحظور الفاسد؛ وهكذا نجد ـ مع النهي عن تلك الكلمة غير المرضية، لما تحمل من عفن فكري أرادته يهود ـ الأمر بما هو بديل طيب عنها.

وإنه لدرس عميق الدلالة في حركة الحياة، يحسن أن يدرك أبعادَه دعاةُ الإسلام، ويعملوا له، وذلك بأن يجدُّوا ويجتهدوا في تقديم البديل

الصالح، لما يدعون إلى تركه والتخلي عنه، سيراً مع أحكام الشريعة الغراء.

وهكذا تكون الكلمات المشرقة بالهداية ـ والقرآن كله نور وهدى ـ نبراساً في الحذر كل الحذر، من تقليد اليهود فيما هدفوا من ورائه، إلى الأذى بالكلمة ومدلولها الخبيث، وفي الحذر كل الحذر، من أي لون من ألوان التقليد المتّسم بالانحراف عن سبيل الهدى، وأن يكون الدعاة ـ وهم يقومون بواجب الدعوة إلى الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والأخذ بمقتضاها ظاهراً وباطناً، وإلى تحكيم شريعة الله في شؤون الفرد والمجتمع والأمة ـ.. أن يكونوا ـ وهم يقومون بهذا الواجب المبارك الميمون ـ على وعي تام بأن حركة الحياة التي لا تتوقف، توجب أن يكونوا على علم بالواقع ومعطيات التاريخ، وما به من قوام الفرد والجماعة على الصعيد الإنساني... الأمر الذي يوجب ـ ما أمكن ـ حرصاً واعياً متنامياً على تقديم الحلول، لما يرى أنه مشكلات على طريق التحويل، الذي يرضى عنه الإسلام النابع من الأصول في كتاب الله وسنة رسوله، وفهوم أئمة الهدى الذين جمعوا إلى العلم، أمانة العمل وصدق الوجهة، في ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

وقل مثل ذلك: فيما يجب لمواجهة القضايا الطارئة التي يفرزها التطور العملي في حياة الناس... والإسلام كفيل بذلك والحمد لله.

وبهذا ينتفي عن هؤلاء الدعاة، أن يكون عملهم أشبهَ بالدعوة إلى العزلة عن المجتمع، وعدمِ المتابعة لحركة الحياة.

هذا: ومعنى «انظرنا» وهي الكلمة التي أرادها الله عوضاً للمسلمين عن كلمة «راعنا» وهم يخاطبون رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو معلمهم وإمامهم وهاديهم إلى الحق... معنى «انظرنا» فهِّمنا، بيِّن لنا يا رسول الله وزدنا إيضاحاً لما تقول لنا وتعلمنا. فكأن الله تعالى يقول: وقولوا أيها المؤمنون لنبيكم ﷺ: انظرنا وارقبنا، نفهم ونتبين ما تقول لنا وتعلمنا. وهذا المعنى المشار إليه أخرجه الطبري في أكثر من رواية عن مجاهد إذ يقول – رحمه الله – في تلك الروايات: (وقولوا انظرنا: فهّمنا، بين لنا يا محمد..) من هنا رجح شيخ المفسرين قراءة «انظرنا» بوصل الألف على قراءة «أنظرنا» بقطع الألف التي هي بمعنى «أخِّرنا» كما قال الله جل ثناؤه في سورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [ص: ٧٩] أي أخرني.

وإنما كان هذا الترجيح لقراءة «انظرنا» لأن أصحاب رسول الله ﷺ إنما أمروا بالدنو من رسول الله ﷺ والاستماع منه، وإلطاف الخطاب له ـ على عكس ما فعل اليهود عليهم لعائن الله ـ لا بالتأخر عنه، ولا بمسألته تأخيرهم عنه.

هذا: وقد انضم إلى التوجيه القرآني في هذه القضية المتعلقة بذاتية المسلمين، وأن يكونوا أبداً على المنهج الأقوم، قولاً وفعلاً، وحسن أدب مع الرسول عليه الصلاة والسلام في الخطاب، وأيِّ نوع من أنواع التعامل، بعيداً عن التقليد والتشبه باليهود... انضم إلى ذلك، ما ختمت به الآية الكريمة، من دعوةِ المؤمنين إلى أن يسمعوا ويعوا قوله، ويحفظوا ما يوجه

إليهم، كي يعملوا به على الوجه المرضي، ومن التوعد للكافرين بالله ورسوله، بالعذاب الأليم، ويدخل في ذلك دخولاً أوليا من كانت تصدر عنهم تلك الأذية لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

هذا: وعلى تعدد القضايا التي حملتها الآية الكريمة، فقد كان من إعجاز القرآن: أن ذلك كله جاء في غاية الوضوح وعمق البيان. لا تقولوا كذا... ولكن قولوا كذا؛ فالذي يعلنه التوجيه الرباني من خلال ما دلت عليه الآية ـ والله أعلم ـ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لنبيكم راعنا سمعك، وفرِّغه لنا، نفهمك وتفهم عنا ما نقول، ولا تقعوا في شرك التقليد لليهود، بذلك أو بغيره مما أرادوا... ولكن قولوا: انتظرنا وترقبنا، حتى نفهم عنك ما تعلِّمنا وتبينهُ لنا. واسمعوا منه ما يقول لكم، فعوه واحفظوه وافهموه، ثم أخبرهم سبحانه، أن لمن جحد منهم ومن غيرهم آياته وخالف أمرَه ونهيَه، وكذب رسوله، العذابَ الموجع في الآخرة. فقال: وللكافرين بي وبرسولي عذاب أليم. والأليم: الموجع.

على أن هذه العظة البالغة، لا ينتهي أمرها وإن بدأت يومذاك؛ فما أكثر ما يواجه الأمةَ من نفثات المصدورين بعدائها المبطَّن، ومن دعوات مشبوهة ـ باسم التحديث والتطوير ـ إلى اتباع مناهج علمانية ضالة في الفكر والتقويم الحضاري، وفلسفة التاريخ والاعتقاد!!

والآن.. وبعد الذي وقفَنا عليه هذا المعلمُ الهادي من معالم الكتاب العزيز، تجدر الإشارة إلى أن الذي وُجِّه إليه المؤمنون من ترك كلمة «راعنا» والاستعاضة عنها بكلمة «انظرنا»، جاء نظيره تنبيهاً لليهود وتوبيخاً

لهم، كيما يرجعوا ـ أن لو كانوا مؤمنين ـ عن تلك القباحات التي كانوا يرتكبونها من تحريفهم الكلم عن مواضعه، وسوء أدبهم البالغ، مع من أمروا بالإيمان به، وقام الدليل على صدق نبوته وهو محمد عليه الصلاة والسلام؛ كل أولئك مع البيان الواضح، أنهم لوا أقلعوا عن ذلك، وبدّلوا حسناً بعد سوء، كان ذلك خيراً لهم وأقوم. ولكن بسبب كفرهم وعنادهم، لعنهم الله وطردهم من رحمته، فلا يؤمنون إلا قليلاً.

جاء ذلك في ختام الآية التي نومئ إليها من سورة النساء، ذلكم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

إنها إشراقة المنهج بعد أن بيّن الله أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون للرسول ﷺ: لا سمعت، وراعنا، يلوون ألسنتهم بذلك مستهزئين بمن رفع الله ذكره وأعلى قدره في العالمين، طاعنين في الدين الذي جاء به من عند الله... بعد أن بيَّن الله تعالى ذلك من خلائقهم، قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾. أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا لنبي الله: سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئت به من عند الله، اسمع لنا وانظرنا نفهم عنك ما تقول لنا، لكان ذلك خيراً لهم من عند الله، يعني أعدل وأصوب في القول؛ ولكن الله أخزاهم، فأقصاهم وأبعدهم من الرشد واتباع الحق بسبب جحودهم وكفرهم القائم على العناد وإنكار الحق؛ فلا يؤمنون إيماناً نافعاً، كما قال تعالى: ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٨].

ولقد كان المؤمنون عند الذي وجههم إليه الكتاب العزيز، فوقفوا عند الذي أرشدتهم إليه الهادية، وظل اليهود على جحودهم، وموقفهم المخزي من رسول الله، والدين الذي جاء به. والمهم اليوم: أن تتضافر الجهود، من أجل أن تكون قنوات العطاء في حياة الأمة، متصلة بالهدي الرباني في الكتاب والسنة، كيما تسقط الأقنعة وتنحسر الغفلة، ويسود اليقين بأن يهود اليوم هم في ضلالهم وعدائهم لنا، أحفاد أولئك الذين لعنهم الله بكفرهم ومكرهم، فأضلهم وأعمى أبصارهم. إن في ذلك لعبرةً لمن يخشىٰ.

obeikandl.com

يكرهون لكم الخير..
والله يختص برحمته من يشاء

لعل من الخير بمكان، أن نعاود التذكير، ونحن ندير الحديث عن اليهود في ضوء القرآن والسنة؛ كيما نضع أيدينا على مكامن الخطر التي دلّ عليها كتاب الله، وبينتها السنة المطهرة، ونفيدَ من إدراك ذلك على صعيد الواقع، ومواجهة الأحداث اليومية والتحديات التي تصدر عن هؤلاء الأناسي، ومن لفَّ لفَّهم وظاهر باطلهم، على حق أمتنا التي ما عرفت إلا صدقَ التعامل مع الآخرين، ولكن الآخرين يقابلونها بالإحسان إساءة، وبالرحمة عدواناً وتنكيلاً... أقول: لعل من الخير – إن شاء الله – ونحن ندير الحديث في هذا الإطار، أن نعاود التذكير بحقيقة، كشف عنها القرآن في أكثر من موطن، وهي أن موقف الكفار ـ وفي مقدمتهم اليهود والمشركون ـ هو الموقف الظالم المعادي الذي لا يتغيّر ـ ما أتيحت ظروف العدوان على هذه الأمة ـ ولا يتبدل. وليس ذلك مقصوراً على ميدان دون آخر؛ إذ ترى الحرب المعلنة والخفية في الميادين جميعها، فليأخذ المسلمون حذرهم، وليُعِدُّوا ما استطاعوا من قوة، ولا يغتروا بزخرف القول وخداع العناوين.. ولا يركنوا إلى أعدائهم؛ فدائماً وأبداً: وراء الأكمة ما وراءها.

دعاني إلى هذه التقدمة: ما كنا بسبيله في صفحات قريبات، من الدلالة على موقف من مواقف اليهود المخزية التي كشف عنها القرآن

الكريم، وهو موقف يتعلق بطريقة الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام؛ فنهي المسلمون النهي القاطع عن أن يقولوا قولتهم، وأمروا ـ بوضوح ـ أن يستخدموا كلمةً بديلة ولهذا ـ كما أشرت من قبل ـ دلالته العميقة في الحفاظ على ذاتية الأمة حتى في الكلمة والاصطلاح، وأن يكون لها وجودها الأصيل، فيما تدع وفيما تأخذ، وهو الوجود النابع من أصالة المنهج الرباني، المستنير بوحي السماء، ولله الحمد.

هذا: ومن الخير أن نعيد إلى الأذهان، أن القضية المومى إليها جاءت، وعليها مسحة الإجمال في سورة البقرة، وجاء تفصيل ذلك في سورة النساء ـ كما سبق ـ وإذا نظرنا في الآية التالية لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا...** ﴾ الآية، وقفنا على تقرير الحقيقة التي ألمحت إليها، وهي أن اليهود والنصارى والمشركين، ومن ظاهر باطلَهم، وسار على نهجهم، يقفون ـ أبداً ـ في الخط المعادي لأمة الإسلام، فهم لا يودون للمسلمين الخير الذي أنزل عليهم من السماء، ولا يرتضونه، بل الذي يودونه: الأذىٰ والهلاك والحرمان من كل فضيلة ـ وإن أظهروا خلاف ذلك ـ. ها نحن نقرأ في تلكم الآية وهي الخامسة بعد المائة من السورة المشار إليها: قول الله جلت حكمته: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾** ﴾ [البقرة: ١٠٥].

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى، عن هذه الحقيقة التي يجيء الحديث عنها، بعد الذي كشفت عنه الآية السابقة، من صنيع اليهود.. فكان

السياق القرآني ينتقل بنا من الجزئية، إلى الكلية التي تشتملها، فما كان يقوله اليهود ـ وهم يخاطبون الرسول ﷺ ـ، هو جزئية خبيثة تنطوي تحت هذه الكلية الكبرى، وهي الحقيقة التي أعلنتها هذه الآية التي نسعد بصحبتها. ذلك أن تأويل الكلام فيها: ما يحب الكافرون من أهل الكتاب ـ يهوداً ونصارى ـ ويدخل فيهم اليهود دخولاً أولياً لأنهم هم المتحدَث عنهم في الآية السابقة ـ ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان ـ أياً كانت هذه الأوثان ـ أن ينزّل عليكم من الخير الذي كان عند الله، فنزّله عليكم.. ويمتد ذلك إلى أي نوع من أنواع الخير، مهما دقّ أو جلّ، كما دل عليه التعبير القرآني ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب، أن لا ينزل الله عليكم الفرقان الحكيم، وما أوحاه إلى محمد ﷺ، من حكمه وآياته. وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك؛ حسداً وبغياً منهم على المؤمنين، في الوقت الذي لا يعرف المؤمنون في تعاملهم مع الآخرين، إلا الاستقامة والصدق.

ونقول: حسداً وبغياً منهم على المؤمنين؛ لأنهم يعلمون ـ لو كانوا صادقين في دعوى الإيمان ـ أن الله تعالى هو المعطي، وهو المتفضل الذي يختص برحمته من يشاء. وما دام الأمر كذلك: فموقفهم يحمل ما يحمل من الانحراف عن الإيمان، وعلى المسلمين أن يحذروا.

وهذا الذي نلمح إليه، هو ما ختمت به الآية الكريمة حيث قال تعالى ـ بعد أن كشف عن تلك الحقيقة في موقفهم من المسلمين ـ ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. على أن في هذه الكلمات

المباركات أيضاً، تذكيراً للمؤمنين بما تفضل الله به عليهم من الشرع التام الشامل الذي أوحى به لنبيهم ﷺ، فعليهم أن يشكروا نعمة الله وفضله، بصدق الإيمان واستقامة العمل بما أنزل الله.

وهكذا نرى أن في الآية التي نحوّم حول عطائها الخيِّر، دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى، نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم ـ من اليهود والمشركين وقطيع الموالين لهم ـ والاستماعِ من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به ـ كما يقول الإمام الطبري ـ على وجه النصيحة لهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستنبطه لهم أهل الكتاب والمشركون، من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون. ونحن واجدون عند الحافظ ابن كثير – رحمه الله –، كلاماً يجمع بين شِقَّي القضية؛ إذ نبه على ما دلت عليه الآية من العداء المتأصل عند أعداء الله للمؤمنين، والنهي عن التشبه بهم وتقليدهم، وأضاف إلى ذلك، الكشفَ عن أن الآية تنبه المؤمنين على ما تفضل الله به عليهم من ذلك الشرع الكامل الذي عليهم أن يعملوا به، يقفوا عند حدوده. قال – رحمه الله – عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾. (يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ حيث يقول تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾.

ومما يُشعر بتكامل المنهج القرآني، وبيان أن فعل هؤلاء وتبييتَهم ما يبيتون من الأذى، يتفق مع هويتهم الحقيقية، وهي أنهم شر البرية: ما نقرأ في سورة «البينة» من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: ٦].

هذا: ولا يخفى على ذي بصيرة: أن الناظر في كتاب الله الكريم، المتدبرَ لآياته، يرى ـ والمسلمون يعيشون مع اليهود وسدنتهم وأعوانهم واقعاً لا يغبطون عليه ـ أن الآيات التي تكشف عن خلائق اليهود، ومظاهر سلوكهم في كل ميدان، وبخاصة في مواجهة المسلمين، كأنها تتنزَّل الآن غضة طرية في مواجهة الواقع؛ وتلكم ومضةٌ من ومضات الإعجاز، الأمر الذي يزيد في يقين المؤمن، أن القرآن كلام الحكيم الخبير، وليس من كلام البشر. هذه واحدة، أما الثانية: فهي أن الإدراك الذي نومئ إليه، يزيد من عبء الأمانة في أن تتخذ أمة الإسلام من الحقيقة القرآنية ـ أبداً ـ مفتاحاً نيراً مباركاً لمعالجة قضاياها وحل مشكلاتها، وعماد ذلك: صدقُ الإيمان، والعمل بالإسلام، والأخذ بأسباب القوة العلمية والعملية من شتى أطرافها، والالتزامُ المخلص بحقيقة أن« الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة» والله الهادي إلى سواء السبيل.

يشترون الضلالة..
ويريدون أن تضلّوا السبيل

الحقيقة التي جرى الإلماح إليها من قريب، وهي أن العداء المتأصل للمسلمين في نفوس الذين كفروا من أهل الكتاب ـ بخاصة ـ والمشركين وأعداء الله بعامة، كان من رحمة الله تبارك وتعالى، أن جاء التنبيه عليها في العديد من المواطن في الكتاب والسنة بكثير من المناسبات، ليكون ذلك من الثوابت التي يجدر بالمسلمين فقهها، وتؤذي الغفلة عنها أشد الإيذء، حتى يقوم الدليل على غير ذلك، في واقعة ما من الوقائع التي نحيط بسببها ومدى دلالتها على المراد.

وقد كانت لنا ـ من قبل ـ وقفة عند الكشف عن هذه الحقيقة في الآية الخامسة بعد المائة من سورة البقرة وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**...﴾ الآية.. حيث جاءت هذه الآية الكريمة، تقرر الكلية العامة التي تنبعث منها مواقف من جاءت على ذكرهم من أعداء الإسلام؛ وذلك في أعقاب الآية الرابعة بعد المائة، التي عرضت لواحدة من مخازي اليهود في خطابهم سيد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، وحضّت المؤمنين أبين الحض ـ نهياً وأمراً ـ على الاحتراز من استخدام هذا اللون من الخطاب.

وقد أشرت إلى أن القرآن في أسلوبه الحكيم المعجز، بعد أن كشف

عن تلك المُخْزية من مخازي المغضوب عليهم، نبه المؤمنين على أن ذلك يرتبط ارتباطاً تاماً بحقيقةٍ، ليس من الحكمة في شيء أن يغفل عنها المسلمون، وهي عداؤهم المتأصل، وأنهم لا يحبون لهم شيئاً من الخير، حسداً من عند أنفسهم وبغياً، من بعد ما تبين لهم أن الذين آمنوا بمحمد ﷺ على الحق الأبلج، وأنهم هم على الباطل المخالف لما بشَّر به كتابهم السماوي، ولكنه العناد وتحريف الكلم عن مواضعه!!.

ويقودنا الحديث عن هذا الذي نبه القرآن عليه، في اثنتين من آي سورة البقرة، إلى ما جاء في سورة النساء، بين يدي التفصيل، لما كان يبطنه اليهود وراء كلمات يقولونها للرسول عليه الصلاة والسلام.

فقبل الآية التي تذكر بعضاً من خصالهم بالتفصيل ـ ومنها مساءلتهم للنبي ﷺ بما يستبطنون من معان سيئة يريدونها من وراء بعض الألفاظ ـ نجد آيتين كريمتين، تكشفان عن أن اليهود، يريدون للمسلمين أن يضلوا السبيل، وأنهم الأعداء، المتأصلةُ فيهم العداوة للمسلمين، ولكتابهم ورسولهم.

أما الآية التي فصّلت الخصال التي نشير إليها: فهي قول الله جل ثناؤه في السورة المشار إليها سورةِ النساء: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾** ﴾ [النساء: ٤٦]. وقبل هذه الآية نقرأ قول الله تعالى بدءاً من الآية الرابعة والأربعين: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا**

نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٥].

ففي سورة البقرة، ذُكرت تلكم المُخْزية من مخزيات اليهود، ونُهي المسلمون عن التشبه بهم في قيلها، ثم رُبطت هذه الجزئية بالكلية العامة، وهي حقيقة أنهم أعداء ألداء، لا يريدون شيئاً من الخير للمسلمين؛ فليس بدعاً أن يصدر عنهم ما صدر، ولكن علىٰ المسلمين أن يتنبَّهوا، ولا يتشبهوا.

وهنا في سورة النساء: قررت الآية الأولى أن اليهود ـ بما تغلي به صدورهم من الحسد والبغي ـ يشترون الضلالة، فيستبدلون حطام الدنيا، بالخير الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، ويتركون ما جاء به كتابهم من العلم، عن الأنبياء الأولين في صفته عليه الصلاة والسلام، وأن المنهج الحق: أن يؤمنوا به ويصدقوه، ولكنهم جحدوا وآذوا، وأصروا على الجحود والأذى، وفي الوقت نفسه، يودّون لو يكفر المؤمنون بما أنزل عليهم من ربهم، ويتركون ما هم عليه من الهدى النافع: ﴿ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾.

وفي الآية الثانية: تعرية لعدائهم وتحذير منهم: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ أي هو أعلم بهم، ويحذركم منهم. ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه، ونصيراً لمن استنصره.

ومعنى ذلك: أن على المؤمنين أن يدركوا تلك الحقيقة، حقيقةَ أن هؤلاء القوم ضالون مضلون، ويريدون للمسلمين، أن ينحرفوا عن جادة

الحق ويضلوا السبيل، لأنهم إذا تحولوا عن سبيل الإسلام ـ الذي ألف الله على عقيدته بينهم، وجمع على هدايته قلوبهم ـ ضعفوا، وتفرقوا، وذهبت ريحهم. إنهم أعداء، والله تعالى أعلم منكم بعدائهم ويحذركم منهم.. يحذركم أن تركنوا إليهم، أو أن تأخذوا بشيء من رأيهم، في دينكم ـ وما أنتم عليه من الحق..

وعماد الأمر ـ بعد التنبيه على عداوتهم ـ أن يكون المؤمنون مع الله؛ عملاً بكتابه وسنة نبيه صلوات الله عليه وسلم، وإفادةً من التجارب في علاقة المسلمين باليهود. وغيرهم من أعداء الله، إنهم إن فعلوا ذلك: كان الله معهم يتولاهم بعنايه، وينصرهم النصر المبنين. أجل: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

والحق أن الآية الكريمة ـ فيما تذكّر به ـ؛ أن يكون المسلمون على اليقظة التامة، فيما قد يدخل عليهم من مناهج اليهود، وأفكار اليهود، ومن يتولاهم، ويدور في فلكهم من أعداء الإسلام، وبخاصة في ميدان الثقافة والمعرفة وتفسير التاريخ، ناهيك عن الرأي في شيء مما شرع الإسلام. ولَكَمْ نحن بحاجة إلى أن نحذر أشد الحذر، من مخاطر الغزو الفكري الذي يقوده اليهود، الظاهرون والمقنَّعون، وأن يكون ذلك على خطٍ سواء، مع إعداد القوة لخوض المعركة الفاصلة في ميادين الجهاد..

ولقد كانت عناية الإمام الطبري، المتوفى سنة عشر وثلاثمائة للهجرة، عناية بالغة في التنبيه على قضية الفكر، أخذاً من الآية الكريمة، لأن أول خطوة على طريق الضعف والتخلف، تبدأ من الاقتناع بما يقوله

العدو الذي يود لو نقعُ في هوة الضلال والشك في شأن ديننا وتاريخنا، وما به كنا خير أمة أخرجت للناس.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ كان مما قاله شيخ المفسرين: (وهذا من الله تعالى ذكره تحذير منه عبادَه المؤمنين، أن يستنصحوا أحداً من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم، أو أن يسمعوا شيئاً من طعنهم في الحق). وتبياناً لقوله جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ قال - رحمه الله -: (أخبر الله جل ثناؤه عن عداوة هؤلاء اليهود الذين نهى المؤمنين، أن يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكمْ بعداوة هؤلاء اليهود لكم أيها المؤمنون. يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا).

اللهم اهدنا سواء السبيل، وخذ بأيدينا إلى حيث ننتفع في علاقتنا بأعدائنا أعداء الله والإنسان، بما نبه عليه كتابك الكريم، ودلت عليه سنة نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وما أكثر الوقائع المتجددة التي تزيد الأمر تأكيداً ووضوحاً، وتعلن إعلانها في إقامة الحجة على من يغترّون، أو يتغافلون أو يستخذون!!

والله أعلم.. بأعدائكم

الوقوف عند ثوابت القرآن والسنة، وما قدمت نصوصهما في شأن أعداء الله من حقائق، يؤكدها الواقع في القديم والحديث: يقتضي ـ وحال أمتنا مع اليهود ومن يتولَّونهم هي الحال ـ قراءةً متأنية لما كان من تحذير الكتاب العزيز والسنة المطهرة، من تقليد من ضربت عليهم الذلة، والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله، ومن ترسُّمِ خطاهم، وهم يجاهرون الله ورسوله والمؤمنين بالعداوة ـ بشتىٰ صورها ـ ويظاهرون الباطل على الحق أبداً.

وهذه القراءة المتأنية الواعية: لا بد أن تشمل، ما كان من توجيه أمة الإسلام، إلى أن تكون أجيال الأمة، حيال ما ينصب أولئك الأعداء من مكائد ـ يعينهم عليها أقوام آخرون ـ أن تكون مع الكتاب والسنة في كل حال، وأن تدور مع الحق حيث دار؛ الأمر الذي يرتفع بها إلى حيث الذاتيةُ والأصالة، وأن تكون في خضم الحياة وصراع الحضارات، هي الفاعلةَ المؤثرةَ على طريق الهداية والخير، لا المنفعلةَ المتأثرة بما يدعو إليه الآخرون، بعيداً عن قيمها الأصلية، وما كانت به خير أمة أخرجت للناس.

وهل من النباهة، وحسن المواجهة للواقع الأليم في شيء: الغفلةُ عما أعلنه الكتاب الحكيم، وأكدته الوقائع التي أتت على ذكرها السيرة

النبوية، من أن هؤلاء الأناسيَّ، الظاهر منهم والمستخفي؛ من الكفرة والمشركين، لا يرقبون في المسلمين إلاًّ ولا ذمة، ولا يبغون لهم إلا الضلالة والخسران المبين. ويسوؤهم أن يتنزل عليهم شيء من الخير، أو ينالهم ولو قدر يسير من التوفيق؟!!

أقول هذا: والعهد قريب بشرف الصّحبة، لما جاء في سورتي البقرة والنساء في قضية (راعنا وانظرنا). وأبعادُ ذلك في الحياة ـ حتى يرث الله الأرض ومن عليها ـ لا تخفى على ذي بصيرة.

والأمر الذي لا يليق إغفاله، على صعيد التعامل ومواجهة القضايا الطارئة يوماً بعد يوم ـ والقوم لهم مطامعُ ليس أقلها ابتلاعُ الأرض والناس... الأمر الذي لا يليق إغفاله، بل يجب أن يكون أبداً في الحسبان: ما أعقب الكلام على التنبيه المتحدَّث عنه، من إبراز حقيقة أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين، لا يودّون أن ينزّل على المسلمين الخير الذي كان عند الله، فنزّله عليهم، واستنارت حياتهم بالمنهج الرباني الهادي، وكانوا أمة الشهادة على الناس، بل خير أمة أخرجت للناس. والذي تمناه المشركون وأهل الكفر عموماً ـ وفي مقدمتهم اليهود ـ أن لا ينزل الله على أمة الإسلام الفرقان، وما أوحاه ربنا جل جلاله إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته.

ومن إعجاز القرآن والدلالة على أنه من عند الله، وليس كلام النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ ما كشف عن خبيئة نفوس هؤلاء الأعداء الحاقدين، من أنهم يكرهون ما يكرهون لنا، ويحبون

ما يحبون، بسبب الحسد الذي يأكل قلوبهم، والبغي الذي مردوا عليه، وخالط منهم النفوس والعقول، أن لو كانت لهم في ميزان الآخرة والحق، عقول!.

وإذا كان الأمر كذلك: فحريٌّ بالمؤمنين ـ بل واجب عليهم ـ أن لا يركنوا إلى أولئك الذين أكل الحسد قلوبهم، وجرَّهم البغي إلى المكر وتمني السوء والضلالة للمسلمين؛ وإذا تهاونوا بهذا الواجب: سقطوا في حمأة الخزي وانهزموا أمام المغضوب عليهم الأذلاء، والضالين التعساء، وذلك ما أدركه علماؤنا المتبصرون بكتاب الله تعالى، المدركون لأبعاد آيِهِ، ومدى الترابط بين آية وأخرى في الموضوع الواحد.

وفي الآيات التي تحمل تلك الحقائق، وأسعدنا أصطحابها من قريب، أوضحُ الدلالة على أن الله تبارك وتعالى، أراد تنبيه المؤمنين على مكامن الخطر، فنهاهم عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، في أي ميدان من الميادين، وذلك بإطلاعه ـ جل ثناؤه ـ إياهم على ما يستبطنه اليهود والنصارى وأولياؤهم من المشركين، من الضغن والحسد وإرادة السوء بأهل الحق، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون ـ كما جاء في سورة البقرة ـ.

وعلى هذا السنن: وجدنا التأكيد القرآني لهذه الحقيقة في سورة النساء، ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾**﴾ [النساء: ٤٤]. هناك في سورة البقرة ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم**

﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]. أنهم يودون لو لم يتنزل القرآن على المسلمين. وهنا في سورة النساء، كشف عن مرحلة أكثر إغراقاً في المكر والأذى، عمادُها أن اليهود يشترون الضلالة؛ يختارونها فيكذبون بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله، معرضين عن الحق الذي تنزلت به التوراة وهو الدعوة إلى الإيمان، به وتصديقه. ويتجاوزون ذلك إلى إرادة الضلالة للمسلمين، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ يريدون أن تتحوّلوا أيها المسلمون لله، عن قصد الطريق ومحجة الحق، فتكذبوا بمحمد ﷺ، وتعكفوا على أمور الجاهلية، وتكونوا ضُلاّلاً مثلهم، فضلاً عما يولده تقليدهم والانبهار بهم، من انحسار المد الإسلامي، والانتكاس في أوضاع المسلمين. فأنت ترىٰ أنه بهذا الوضوح، يحذر الله عباده المؤمنين، أن يستنصحوا أحداً من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم أو حياتهم على وجه العموم، أو أن يسمعوا شيئاً من طعنهم في الحق؛ لأنهم على الشاكلة التي وصفهم الله تعالى بها، وكشف عن حقيقة ما يبطنون ويكنون من العداوة للإسلام وأهله.

يؤكد ذلك قوله جل شأنه ـ بعد ذلك: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء: ٤٥] وقد رأينا من قبل ما قرره شيخ المفسرين – رحمه الله – عند هذه النقطة حيث قال: (**يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم أيها المؤمنون. يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا**). رحم الله أبا جعفر، إن اليهود ما داموا

على هذه الشاكلة ـ وهذا ما يؤيده الواقع أبداً ـ.. لا يريدون لهذه الأمة الخير، لا في دينها، ولا في دنياها، بل الذي يريدونه ويعملون أبداً على تحقيقه: هو أن تصاب هذه الأمة في دينها ولا تقوم لها قائمة في العالمين.

وما على المؤمنين، إلا أن يكونوا مع الحق الذي نزل به الكتاب، يوالون في الله، ويعادون في الله، مهما كلف ذلك من أعباء وتضحيات، إنهم إن فعلوا ذلك صادقين مخلصين، كان الله معهم بتأييده ونصره على اليهود، ومن تسيِّرهم مطامع اليهود. وما ختمت به الآية واضح في هذا الذي نقول، فبعد قوله جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ جاء ختام الآية بقوله سبحانه: ﴿وكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

ويزداد الأمر وضوحاً في اليهود وعدائهم للمسلمين، على مستوى البيان لطبيعة الخلاف، وأن المعركة ـ على المدى ـ معركة بين الحق والباطل، وواجب المسلمين الحتم أن يكونوا على إدراك لهذه الحقيقة... وأن يسلكوا في تعاملهم مع أعداء الله والإنسان، المنهج الذي تقتضيه تلك الحقيقة...

أجل يزداد الأمر وضوحاً لا يدع ريبة لمستريب، ولا عذراً لمعتذر.. فتقرأ بعد قوله تعالى: .. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ قوله جل ذكره: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

وبعد هذا التفصيل في بعض خلائق اليهود، من تحريفهم الكلم عن مواضعه، وافترائهم على الله، وسوء أدبهم البالغ مع النبي عليه الصلاة والسلام، وأنهم لو سلكوا الصراط السوي، لكان خيراً لهم، ولكن بسببٍ من كفرهم، طرَدَهم الله من رحمته، فلا يؤمنون إلا قليلاً.

بعد هذا التفصيل... نرى أمراً لهم بالإيمان بما نزل على محمد ﷺ، مصدقاً لما معهم، كما نرى لوناً من ألوان الوعيد الشديد بالعقوبة القاصمة في الدنيا والآخرة، إذا لم يؤمنوا؛ فيصاب الأحفاد بما أصيب به أسلافهم، ذلكم قول الله جل وعز: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٤٧﴾**﴾ [النساء: ٤٧].

اللَّهم هيء لهذه الأمة من أمرها رشداً، حتى تجعل من تدبُّر كتابك العزيز، والعملِ بسنة نبيك المصطفى أساساً لمنهجها، في مواجهة التحديات التي يقف وراءها اليهود وأعوانهم والمفتونون بهم، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

ظاهرة الحسد والضغينة..

الماضي والحاضر

المسلمون اليوم، مدعوون ـ وقد تداعى عليهم الأعداء من كل حدب وصوب ـ أكثر من أي وقت مضى.. إلى تبيُّن طريقهم التي يجب سلوكها ـ حفاظاً على كيان الأمة، وردّاً للعدوان ـ من خلال الهدي الرباني في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام، والمعرفة الواعية بالواقع الإقليمي والعالمي.

وفي اصطحاب للكلمة القرآنية الهادية في شأن ما ينطوي عليه اليهود ـ والكفرة على وجه العموم ـ من ضغن وحقد على المسلمين، كانت لنا وقفة تذكير عجْلى عند آية من سورة البقرة هي قول الله تبارك وتعالى: في الآية الخامسة بعد المائة: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥]. وكذلك عند آيات من سورة النساء بدءاً من الآية الرابعة والأربعين وهي قول الله جل شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا

لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٤٧﴾ ﴾ .

[النساء: ٤٤ – ٤٧].

وفي ضوء ذلك: لعل من الخير أن نشير إلى ما ينطوي عليه أعداء الله ـ بعامة ـ واليهود ـ بخاصة ـ من حقد وضغن على المسلمين، وحسد يقود إلى البغي وإرادة السوء.. حقيقة تكمن وراء تصرفاتهم، ومنهج تعاملهم مع أهل الإيمان. وقد استأثر تقرير هذه الحقيقة، بقدر كبير من الاهتمام ـ كما أسلفت ـ في عدد من آي الكتاب الكريم، كما نجده في قدر لا بأس به، من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، ووقائع سيرته المطهرة. وما رأينا في سورة البقرة والنساء، يمثّل جزءاً من المساحة التي ازدانت بهذا العطاء، وعلى سبيل المثال لا الحصر: نقرأ في الآية التاسعة بعد المائة من سورة البقرة أيضاً، قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ففي هذه الآية، يحذّر الله تبارك وتعالى المسلمين، من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، والركون إليهم وموالاتهم والميل إليهم، ويُعْلمهم شديدَ عداوتهم في الباطن والظاهر؛ وما هم مشتملون عليه من الحسد، من عند أنفسهم للمؤمنين، ولنبيهم عليه الصلاة والسلام، وكل هذا: من

بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد صلى الله وسلم وبارك عليه، وأنه رسول إليهم وإلى خلق الله كافة، دونما استثناء أو تقييد، حتى إن تلك العداوة، تجعل الكثير منهم يودون أشد الود، لو يردون المؤمنين كفاراً جاحدين، بعد أن أكرمهم الله بالإيمان، وأخرجهم بالإسلام من الظلمات إلى النور.

ومن أجل ذلك، لا يجوز سلوك طريقهم، ولا الركون إليهم فضلاً عن موالاتهم، إذ كيف يُطمأن إلى شيء مما يقولون، أو يفعلون في أمر الإسلام ونبيه والمؤمنين به، وهم على هذه الشاكلة من العداوة الظاهرة والباطنة؟! وما أكثر الوقائع التي تؤكد ذلك، عظيم التأكيد في التاريخ القديم والحديث!! والتعبيرُ بالكثير في الآية الكريمة: يدل على الظاهرة التي تطبع مواجهتهم للنبي ﷺ والمسلمين: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ وكان الود هنا أعمقُ من الإرادة؛ فهو إرادة في العقل، ورغبة مُلحَّةٌ من القلب. والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود، فقد جاءت روايات عدة تذكر كعب بن الأشرف، وتذكر حيي ابن أخطب، وأبا ياسر بن أخطب ـ وهم من هم في نفوذهم وكلمتهم المسموعة في يهود ـ.

روى الطبري بسنده عن الزهري في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هو كعب بن الأشرف، وروى مثله عن قتادة. وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب، من أشد يهود، عداءً للعرب، وحسداً، إذ خصّهم الله برسوله ﷺ، وكانا

جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾... الآية.

وعلى أية حال: فالأمر ـ كما أسلفت ـ يكمُن في أن هؤلاء الذين جاءت الروايات على ذكرهم من زعماء يهود، والمطاعين فيهم، يمثلون الظاهرة، ظاهرة الحسد والحقد، التي نشأ عنها ودُّهم لو يردون المؤمنين كفاراً، يتمرغون في أوحال الضلالة، بعد أن أنقذهم الله برسالة محمد ﷺ، وأخذ بأيديهم إلى مرابع الهدى والنور، ولا شك أن الظاهرة، يسري أثرها على الآخرين.

ولقد يزيد الأمر وضوحاً في هذا الذي نقول ـ مع التصريح بالكثرة هنا، حيث قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ـ أن نستذكر الآية التي رأيناها من قبل في سورة البقرة، وهي الآية الخامسة بعد المائة، حيث يقول ربنا جل شأنه: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾. هكذا بكل وضوح: الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، ما يودون أن ينزل القرآن على المسلمين ـ وهو مصدر هدايتهم، وقوتهم، ووجودهم الذاتي الأصيل؛ وهذا ودٌّ تنفيه الآية التي نحن بصددها وهي الآية التاسعة بعد المائة ودٌّ تُثْبِتُهُ هذه الآية: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ فالودُّ المنفي عن الجميع: وُدُّ تَنَزُّلِ القرآن على المسلمين أو شيء منه، والود المثبَ للكثير: وُدُّ ارتداد المسلمين عن دينهم إلى الكفر والعياذ بالله، وأحسب أن الربط بين ما نُفي

عنهم، وبين ما أُثبت لهم، قائم، فهم لا يودون الخير للمسلمين ـ جملة وتفصيلاً ـ مهما كان شأنه، ويودون لهم الشر جملة وتفصيلاً على أي وجه، وفي أية سبيل.

وفي تأكيد لحقيقة ما صرحت به الآية، بأن الكثير من أهل الكتاب ـ وهم اليهود هنا ـ ودوا لو يردون المسلمين من بعد إيمانهم كفاراً، وذلك بدافع الحسد والضغينة... في تأكيد لهذه الحقيقة، أحسن علماؤنا ـ رحمهم الله ـ في ردٍّ أن يكون المقصود بالكثرة أيَّ شيء غير الكثرة العددية. وذكرُ كعب بن الأشرف وحده، أو حيي بن أخطب وأبي ياسر أخيه فحسب، لا يعني أن نتحول عن الكثرة العددية إلى غيرها. وقد أسلفتُ أن الواحد من هولاء، يمثل وجهة الأكثرين، وَوُدَّ الأكثرين؛ لأنه صاحب الكلمة المسموعة، وذو الرأي النافذ في يهود.

فليس لمن يقول ـ مثلاً ـ المراد: كعب بن الأشرف وكفى: معنى مفهوم؛ لأن كعب بن الأشرف واحد، وقد أخبر الله جل ثناؤه أن كثيراً منهم يودون لو يردون المؤمنين كفاراً بعد إيمانهم. والواحد لا يقال له كثير بمعنى الكثرة في العدد، وقد يقال: لعل المراد بالكثرة كثرة المنزلة والقدر، وذلك مردود أيضاً، لأن الله تعالى وصفهم بصفة الجماعة فقال: «لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً..» فذلك ـ كما يقول أبو جعفر ـ دليلٌ على أنه عنى الكثرة في العدد.

ولقد يظن ظان أن من الممكن أن يكون الكلام، قد خرج مخرج الخبر عن الجماعة، والمقصود بالخبر عنه الواحد، فقال «كثير» وأراد كعب بن

الأشرف ـ عليه وعلى أمثاله لعائن الله ـ ولكن ينفي هذا الاحتمال، أنه لا دليل عليه مطلقاً، والكلمات الهاديات في الآية الكريمة: جاءت صريحة واضحة فيما أخبر الله عن الكثير من ذلك الود الخبيث، وليس من دليل يصرف عن ذلك.

والحق ـ كما أسلفنا ـ أن هولاء الذين حملت الروايات أسماءهم يمثلون الظاهرة، في عتوّ العداء اليهودي الظاهر والباطن للمسلمين. وهكذا يتقرر بالنص الصريح أن هؤلاء الناس، لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، ولا يودون لأمتنا أيَّ لون من ألوان الخير، فضلاً عن تنزل القرآن، بل على العكس من ذلك، يودّون لنا كل شر ومساءة، ولو كان ذلك على حساب العقيدة، وما به كرّم الله أمتنا بما أخبر في قرآنه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وما دام باعث الحسد والبغي والضغينة موجوداً عند اليهودي ـ بوصفه يهودياً ـ فالمسلم لا يحتاج إلى قياس، في ترقب كل أذىً من هؤلاء الذين أعلمنا الله ما عندهم من عداء، أو إلى تعليلٍ لما هو واقع اليوم، من الأذى البالغ والإفك المصطنع. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حسداً من عند أنفسهم..
من بعد ما تبين لهم الحق

لا يعوز الناظر في مقومات المنهج القرآني، الهادف إلى إعداد المسلم، وتربيته، على إدراك ما هو حق وما هو باطل ـ في علاقته بربه، وعلاقته بالآخرين ـ وضوابط ذلك.. لا يعوزه أن يقع على العديد من النماذج، التي تؤصل في النفوس مبدأ العدل مع الآخرين وإنصافهم ـ موالين كانوا أو معادين ـ وإعطاء كل ذي حق حقه، وأن من المخالفة للمنهج في سموه ورفعته، أن يحمل بُغضُ طائفة من الناس، على الوقوع في الجور، وتجاوز الحقوق.

ومن تلك النماذج: ما تشرق: به الآية التاسعة بعد المائة من سورة البقرة التي قررت ـ كما أسلفنا من قبل ـ أن كثيراً من أهل الكتاب ـ وهم اليهود هنا ـ ودوا لو يردون المسلمين بعد إيمانهم كفاراً، يخسرون الدنيا والآخرة. وعلى كل مساوئ يهود: لم يعمم القرآن في الحكم بل قال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ وهذا يدل على أن قلة منهم لا تَوَدُّ ذلك.

وفي عود على بدء: يقع الناظر المتأمل: على واحدة من سمات الإعجاز في كلام الله فيما كشفت عنه الآية، من كون الباعث على هذا الود السقيم المؤذي هو الحسد، وأن ذلك لم يقع عن جهالة، ولكنه واقع

من بعد ما تبين لهم الحق... ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ الآية.

ونحن هنا ـ في قوله تعالى: ـ ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ـ أمام رائعة من روائع البلاغة القرآنية، إذ إن الحسد ـ كما هو عند اليهود ـ معروف أنه من داخل النفس، وله ما له من الدلالة السيئة، فلو جاء التعبير خلياً عن قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾. لأدىٰ غرضه في نسبة الحسد إليهم، ولكن هذه الكلمات الثلاث، دلّت علىٰ أنه ليس هنالك عامل، يحمل سمة من سمات الحق، مؤثرٌ فيما يود اليهود من الضلالة والعماية للمسلمين، فقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ نفى أيَّ احتمال آخر، في وجود باعث غير الحسد والبغي، يحمل أولئك المغضوب عليهم على ذلك الود الظالم، فهم لم يؤمروا بذلك في كتابهم، ويتجهون هذا الاتجاه، بعد علمهم بأنهم منهيون عنه؛ وهكذا نرى القرآن يدل ـ بهذا العبير ـ دلالة قاطعة على أن كثيراً من اليهود، يودون ما أخبر الله ـ جل ثناؤه ـ عنهم، أنهم يودونه للمسلمين من الردة عن إيمانهم إلى الكفر ـ وفي ذلك ما فيه من التردي والتحول المهلك ـ حسداً من قبل أنفسهم للمسلمين، وبغياً عليهم.

لقد حسدوا المسلمين على ما أعطاهم الله من التوفيق ببعثة محمد ﷺ، وما وهب لهم من الرشاد لدينه والإيمان برسوله، وما خصَّهم به من أن جعل رسوله المصطفى إليهم رجلاً منهم رؤوفاً بهم رحيما: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

أجل مما حسدوهم عليه، أن خصهم الله به فجعله منهم ولم يجعله من يهود فيكونوا لهم تبعاً إلى جانب أمور أُخَر..

من هنا كان واضحاً: أنهم يودّون ما يودّون، بإصرار وتعنت، الأمر الذي يدل على أن ذلك خليقةٌ لهم، يجب أن يتنبه لها المسلمون، ولا يغتروا ببعض الظواهر التي قد تسترها، وأن يُحسب لهذا الأمر حسابُه في منهج التعامل معهم، لكيلا تختلط الأمور، ويلتبس الحق بالباطل، ويؤخذ أهل الإيمان على غِرَّة، ويصابون من حيثُ لا يشعرون.

وليس أدَلَّ على أن الحسد والبغي خليقة لهم، في علاقتهم بالأمة المسلمة، من كون ذلك - كما أسلفت الإشارة - حاصلاً من قبل أنفسهم، كما دل على ذلك صريح القرآن، وكونهم - كما ذكر آنفاً - لم يؤمروا بذلك في كتابهم، قبل التحريف والتبديل، وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك - لا عن جهل أو غباء - بل يأتون به، على علم منهم بنهي الله إياهم عنه.

هذا، بالإضافة إلى أنه قد تبين لهم الحق في أمر محمد ﷺ، وما جاء به من عند ربه، والملةِ السمحة المباركة التي دعا إليها، فأضاء لهم أن ذلك الحق الذي لا مرية فيه.

روى الإمام الطبري عن قتادة: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾: من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله ﷺ، والإسلام دينُ الله.

كما روى عن أبي العالية: تبين لهم أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

سبحان الله.. أي إصرار هذاالإصرار على الضلال.. وأيُّ عناد هذا العناد.. بل أي افتراء هذا الافتراء على الحق الذي تجاوزوه ـ وهو جدٌّ صريح في كتابهم ـ إلى أن يودوا للمسلمين كفراً بعد إيمان، وضلالاً بعد هدى، كل ذلك حسداً من قبل أنفسهم وبغياً على المسلمين!!.

رُوي عن الربيع ما روي عن أبي العالية من قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾: تبين لهم أن محمداً رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وزاد فيه: فكفروا به حسداً وبغياً إذ كان من غيرهم.

وعلى هذا: فما دام الباعث حسدهم وبغيهم على المسلمين.. فليس عجيباً أن يصدر عنهم ـ في كل زمان ـ ما يصدر من تبييت الشر للمسلمين، والحرصِ على أن ينالهم الأذى، في كل ميدان من الميادين.. ورضي الله عن حبر هذ الأمة عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – إذ يقول: «من بعد ما تبين لهم الحق، يقول تعالى ذكره: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحد، فعَيَّرهم الله ولامهم ووبخهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم، وما أنزل على من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم».

ونسير مع الآية الكريمة، لنراها تختم بقوله تعالى: خطاباً للمؤمنين ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

يعني ربنا جل جلاله بذلك ـ والله أعلم ـ تجاوزوا أيها المؤمنون عما

كان من أولئك الأعداء، من إساءة ورغبة في أذيتكم، وخطأ في رأي أشاروا به عليكم في دينكم إرادَةَ صدِّكم عنه، وأن تقعوا في مهواة الرِدَّة بعد إيمانكم، وعما سلف منهم من سوء الأدب مع نبيكم ﷺ، وكونوا يقظين لذلك، حتى يأتي الله بأمره، كما نرى في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

يعني: فعليكم بالعفو والصفح، حتى يأتي الله بأمره، فيحدث لكم من أمره فيما يجب أن تسلكوه ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد. وانتهت هذه المرحلة التي كان المسلمون فيها على خير مستوى من الإحسان، والصبر على ما نالهم من الأذى، والتي صحب العفوَ والصفحَ فيها يقظةٌ وتنبهٌ إلى المقدمات والنتائج، وحقيقةِ ما يكمُن وراء التصرفات، وأتى الله بأمره وشرع قتال الأعداء والتقرب إلى مرضاته بجهادهم. قال شيخ المفسرين – رحمه الله –: فقضى فيهم تعالى ذكره وأتىٰ بأمره، فقال لنبيه ﷺ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]. وروى – رحمه الله – عن الربيع في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قال: اعفوا عن أهل الكتاب حتى يحدث الله أمراً، فأحدث الله بعد فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ

﴿الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

كما روى عن السدّي: هذا منسوخ نسخه ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

إنها ظاهرة التكامل والكمال في شريعة الإسلام؛ كان العفو والصفح والصبر على الأذى، حتى إذا لم يبق في القوس منزع، والأعداءُ في ضلالهم، ومحاربتهم للإسلام والمسلمين سادرون، أتى الله بأمره وشرع القتال، والله على كل شيء قدير.

obeikandl.com

هذه الحقائق..

أمانة في أعناق المسلمين

الكلمة القرآنية المعطاء، كنز لا يفنىٰ، وطريق هداية حاشا لسالكه أن يضلّ. كيف لا، وهي سلسبيل كتاب لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، وهو ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود: ١]. وإذا كان الأمر كذلك: فأنى للعطاء الخيِّر أن ينفد؟ وأنى للهداية الشاملة أن ينحسر رواؤها عن الإنسان، حين يصدِّق هذا الإنسان، ويفتح قلبه وعقله لنور الهداية والعطاء؟ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٩] ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان: ٢٧].

أقول هذا، ونحن على موعدنا في متابعة الرحلة مع الكلمة الهادية الزاخرة بكل ما يسعد المسلمين في الدنيا والآخرة، ويجنبهم الأذى، ويصعد بهم إلى مراقي الفلاح والتمكين، أن لو تدبروا هذا القرآن وعملوا بمقتضاه، وكانوا مع سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام؛ في القول والعمل والسلوك.

ولقد كان من مظاهر الهداية في الكتاب والسنة، ما دُلَّ عليه المؤمنون من حقائق ذات علاقة بأعداء الله ورسوله والمؤمنين وما أعتاهم!. ومن هذه

الحقائق أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، مغرقون في حسد المسلمين والبغي عليهم؛ وقد حملهم ذلك على كراهية أن يكون للأمة المحمدية شيء ذو بالٍ من الخير، فضلاً عن أن يتنزل عليها القرآن الكريم، وتنعم برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام. بل إن كثيراً من اليهود، يودون لو عاد المسلمون من بعد إيمانهم، كفاراً، يتيهون في مسالك الضلال، ويفقدون مقومات العزة والنصر، والعياذ بالله.

ولا بد من التنبيه على أنه بعد الكشف عن هذه الحقيقة للمسلمين، كيما يكونوا على بينة من أمرهم، وكيما يكونوا على حذر واع في تعاملهم مع اليهود والمتهوِّدين.. جاءت الآية التي تلي، لتوجه هؤلاء المسلمين إلى أن المنهج النافع المجدي، يجب أن يلاحظ فيه أمران أساسيان؛ أما أولهما: فهو المعرفة الموضوعية بما عليه الأعداء، دونما اغترار بما قد يظهرون ويزخرفون، ولا غفلةٍ قد تمكنهم من مقاتلنا، ومن ثمرات ذلك: وجوب إعداد المستطاع من القوة. وأما الثاني: فهو أن يكون أهل الإسلام أبداً، عند الذي تقتضيه العقيدة؛ من صدق إيمان وعمل بأحكام الشريعة، وأن يكون سلوكهم صورة صادقة عن إيمانهم، ووضوح الرؤية عندهم، وأن لا يكون حظهم من الإسلام الاقتصارَ على الأمر الأول، وهو الكلام على الأعداء، مهملين العملَ والأخذ بالأسباب.

فالآية السابقة ـ وهي التاسعة بعد المائة في سورة البقرة ـ دلت على مكمن الخطر في موقف اليهود ودخلت إلى الأعماق، فكشفت عما يودونه من الأذى للمسلمين. وجاءت الآية التي تلتها، فأمرت المسلمين

بإقامة الصلاة وإيتاءالزكاة، مبينة لهم أن ما يقدمونه من خير ـ هكذا على الإطلاق ـ يجدون ثمراته الطيبة في الدنيا والآخرة؛ فهو سبحانه بما يعملون بصير. والآية التي نعني هي قول الله جلت حكمته: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: ١١٠]. فالله تعالى يحث المؤمنين على الاشتغال بما ينفعهم، وينمي إيمانهم، وقدرتهم الذاتية، وتعود عليهم عاقبتهُ، يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ من إقامة الصلاة وإيتاءالزكاة، وذلك من أسباب النصر في الدنيا، والسعادة في الآخرة، ذلك لأن إقامة الصلاة وإيتاءالزكاة، نموذج مشرق صادق لتطويع السلوك، كيما يكون الفرد، والمجتمع في أمة الإسلام على صراط الله الذي إذا أحسنوا سلوكه، مُكِّن لهم في الأرض وأتاهم نصر الله، وكانوا أعقلَ من أن ينطلي عليهم مكر يهود، وأعزَّ من أن يهددوهم في عقر دارهم.. وكان لهم حسن العاقبة يوم الدين.

ولهذا ـ والله أعلم ـ تلا قولَه تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ قوله جل ثناؤه: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾. أي مهما تعملوا من عمل صالح، في أيام حياتكم، فتقدموه ذخراً لأنفسكم ـ على ما للعمل الصالح من معنى شمولي لا يقتصر على العبادة التوقيفية، بل يمتد رواؤه إلى ما هو أوسع وأوسع ـ تجدوا آثاره الطيبة عند الله في الدنيا والآخرة، فهو الكريم المنان المتفضل، الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة، وهو مجازٍ كل عامل بعمله، محسناً كان أو مسيئاً. قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾. يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكّن لهم النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

وانظر إلى قوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. هذا الكلام الذي خرج مخرج الخبر المؤكد، يحمل وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً. فإذا كان الله قد جلّى الحقيقة بالنسبة لليهود؛ فإن ذلك أمانة في أعناق المسلمين، عليهم أن يراعوها، ويضعوها في حسبانهم. ولا يكفي أن يعلموها، ثم يتجاهلوها، أو يصحب العلم بها، انحراف عن الصراط السوي الذي جاء به الإسلام؛ فيما ينمي إدراك الحقيقة وأبعادها أكثر وأكثر، والقدرة على وضعها موضعها من الواقع، وتوجيه حركة التعامل مع اليهود، وأعداء الله على وجه العموم، وأن يكون المسلمون على استقامة في أمر دينهم إخلاصاً لله، وعملاً بشريعته، وأخذاً بأسباب المَنعة والتمكين... أن يُعنوا أشد العناية بتطبيق المنهج الذي كانوا به خير أمة أخرجت للناس!! والذي إن أخذوا بهديه تجاوزوا الواقع الأليم، وكانوا قادرين ـ بإذن الله ـ على صياغة واقع جديد، ينعمون فيه بالقوة والمنعة، والقدرة على نشر كلمة الله في العالمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ـ بعد الذي مر من تبصير المسلمين بحقيقة هي من خلال يهود، وبعد أن أمرهم بالعمل بأحكام الدين ـ استوقف شيخ المفسرين فقال: (وهذا خبر من الله جل ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير وشر،

سراً وعلانية فهو به بصير ولا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان مثله وبالإساءة مثلها. ثم قال - رحمه الله -: (وهذا الكلام وإن خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً، وذلك أنه أعلم بالقوم، وأنه بصير بجميع أعمالهم، ليجدُّوا في طاعته، إذ كان ذلك مدخوراً لهم عنده حتى يثيبهم أعمالهم، ليجدُّوا في طاعته، إذ كان ذلك مدخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه، كما قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ وليحذروا معصيته إذ كان مطلعاً على راكبها، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها، وما أوعد عليه ربّنا جلَّ ثناؤه فمنهي عنه، وما وعد عليه فمأمور به).

ترى: هل نعمل على أن نكون منصفين مع أنفسنا ومع الحقيقة، فننظرَ بشجاعة أدبية إلى ما نحن عليه في واقعنا مع يهود وغير يهود، ونحاولَ محاولة جادة، لا ينقصها حسن الأخذ بما وجّه إليه القرآن الكريم وبيانه من السنة لتحقيق ذلك... إننا إن فعلنا ذلك، نكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق الموصلة إلى ما ينشده المؤمنون المخلصون، الذين يعون أن لله سننا لا تتخلَّف في النصر والتمكين، وهو - جلَّ شأنه - ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم.

وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

النهي عن تقليد اليهود وموالاتهم، والاطمئنان إلى الأخذ عنهم ـ وخاصة في أمور الدين ـ بجانب أن فيه تأكيد ذاتية الأمة المسلمة، وضرورة ارتباطها بمنابع وجودها الحقيقي في كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ يلاحظ أنه معلَّل أيضاً ـ في نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي ـ بأن أولئك المغضوب عليهم، لا يؤتمنون على شيء من هذا؛ لأن صدورهم تغلي بالحقد والحسد للمسلمين، والبغي عليهم وودِّهم أن يكون المسلمين على شر حال، ذلك من بعد ما تبين لهم الحق.

وقد سعدنا بصحبة عدد من الآيات التي كشفت عن هذه الحقيقة، ونبهت المسلمين عليها، بأسلوب يربط القضية الطارئة بالموضوع الكبير، دون تحديد بزمن أو فئة من الناس، وهذا يوحي بأن القضية المطروحة، والتي تتمثل بحسد اليهود، وبغيهم وحقدهم على أمة محمد عليه الصلاة والسلام؛ وأنهم لا يودون لها إلا المساءة في الدين والدنيا ـ مع علمهم بالحق، وأن مسلكهم هو الباطل بعينه ـ يجب أن تكون في حسبان المسلمين وموضع اهتمامهم في كل عصر، وعلى أيٍّ صعيد من أصعدة التعامل مع الأعداء في حالات السلم والحرب. وأن يكونوا على تنبه تام يباعد عن الغفلة والاغترار بالمظاهر، وزخرف القول.

والحق أن عناية القرآن وبيانه من السنة، كانت واضحة كل الوضوح

في هذا... ولو رحنا نتتبع النصوص ـ التي هي من الصدق وإليه، والتي أيدها الواقع عبر التاريخ، بدءاً من عهد النبي عليه الصلاة والسلام ـ لوقعنا على ما يشفي الغُلة، ولا يدع ريبة لمستريب.

وفي هذه البابة نقرأ في سورة آل عمران، وسورة آل عمران، سورة مدنية نزلت والمجتمع المسلم يمور بالحركة الهادية، ويواجه الأعداء بشتىٰ عناوينهم وألوانهم وفي مقدمتهم اليهود الذين يتربصون الدوائر ويحاولون ـ في جملة ما يحاولون ـ أن يضلوا المسلمين ويوقعوهم في المهالك، كيما يفقد هؤلاء المسلمون مقومات الوجود الذاتي وعناصر القوة، ويعود إليهم ـ أعني اليهود ـ ما كان لهم من السلطان في المدينة وما حولها، قبل أن تشرقَ شمس الإسلام، ويدخلَ هذا الدين كل بيت في المدينة... في هذه البابة نقرأ في هذه السورة المباركة قول الله جل ذكره: ﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾** ﴾ [آل عمران: ٦٩].

يخبر تبارك وتعالى في هذه الآية، عن حسد اليهود للمؤمنين، وبغيهم إياهم الإضلال، بأن يصدوهم عن الإسلام، ويردوهم عنه إلى ما هم عليه من الكفر، وبذلك يقعون في الهلكة والخسران. ومن بلاغة القرآن ـ وهو الكتاب المعجز ـ أن عبَّر بالإضلال هنا ـ والمراد به الإهلاك ـ لما أن الضلال طريق لهلاك بلا ريب، وفي هذا مزيد من تنبيه المسلمين على أن يكونوا على حذر من أي خطوة من خطوات الضلال، لأن ذلك عنوان السير على طريق النهاية؛ ما دام هذا الضلال ـ كما هو معلوم ـ يريد الهلاك في الدنيا والآخرة.

فاليهود عندما يتمون إضلال المسلمين، فالغرض واضح من ذلك؛ فإذا استجاب المسلمون لدعوة ضالة ـ وما أكثر ما يقف اليهود والصليبيون وراء الدعوات الضالة.. ـ يكونون قد رضوا لأنفسهم سوء العاقبة، والتحول عن الأصالة والقوة، وما فيه مرضاة الله عز وجل، إلى ما هو خسران مبين في هذه الدار، ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

قال الإمام الطبري: والإضلال في هذا الموضع ـ يعني في قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ ـ الإهلاك، من قول الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [السجدة: ١٠]. ومما استشهد به على هذا المعنى قول نابغة بني ذبيان:

فآبَ مضِلُّوه بعَينٍ جَلِيَّةٍ وغودرَ بالجولانِ حَزْمٌ ونائلُ

ثم أخبر تعالى أن وبال محاولتهم صدَّ المسلمين عن دينهم، إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون، ذلكم قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أجل: إنهم يهلكون أنفسهم، وأتباعهم وأشياعهم على ملتهم ومسالكهم، وإنما أهلكوا أنفسهم وأتباعهم بما حاولوا من ذلك، لأنهم استوجبوا بمحاولاتهم الآثمة سخط الله، واستحقوا غضبه ولعنته، لكفرهم بالله ونقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم في كتابهم، في اتباع محمد ﷺ وتصديقه والإقرار بنبوته.

على أنهم لم يقفوا عند هذا الحد من الكفر ونقض الميثاق، بل حاولوا صدَّ المسلمين عن دينهم الحق، إذ لا يهدأ لهم بال ـ وهم يتمرغون بلعنات الله وغضبه ـ حتى يبلغوا الغاية لو استطاعوا، في تحويل المسلمين عن طريق الإيمان والعزة والتمكين، إلى طريق الكفر والذِّلَّة والهوان.

وفي قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إخبار منه جل ثناؤه، وأن أولئك اليهود يفعلون ما يفعلون؛ من محاولة صد المؤمنين عن الهدى، إلى الضلالة والردى، على عماية منهم وجهلٍ بما الله مُحِلٌّ بهم من عقوبته، ومدّخرٌ لهم من أليم عذابه، وشديد أَخْذِهِ؛ فأَخْذُه ـ سبحانه ـ أليم شديد.

فإذا وعى المسلمون هذه الحقيقة، وعملوا بمقتضاها، وكانوا على يقظة من أمرهم، فاستمسكوا بالحق الذي نزل به الكتاب، كان الله معهم، فوقاهم شر اليهود ومن هم على سَنَن اليهود، وعادت محاولات الأعداء الظالمة عليهم، ورُدّت سهامهم إلى نحورهم. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١].

يلبسون الحق بالباطل..
ويكتمون الحق وهم يعلمون

حططنا الرحال من قريب، ونحن نعرض لبعض من توجيهات الكتاب العزيز في شأن المتربصين بنا الدوائر، وما يجب من أخذ الحِذْر وعدم الاطمئنان إلى ما يصدر عنهم، وبخاصة إذا كان ذلك في أمر من أمور الدين، لأنهم ينطلقون في تعاملهم مع المسلمين، من الرغبة الجامحة في الأذى، وهي رغبة مصحوبة بالحسد من عند أنفسهم، والبغي على عباد الله المؤمنين.

أقول: حططنا الرحال، ونحن نعرض لبعض من ذلك، عند قول الله تبارك وتعالى في الآية التاسعة والستين من سورة آل عمران: ﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وغير خافٍ، أن الآية تقفنا على حقيقة ما ودّ أولئك الحاقدون، وهم طائفة من اليهود، أن يوقعوا المسلمين في الضلال، فيكون ذلك طريقهم إلى الهلكة والخسران المبين. وقد فسَّرت ـ يضلونكم ـ على أنها بمعنى ـ يهلكونكم ـ لأن الإضلال جاء بمعنى الإهلاك في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ [السجدة: ١٠]. ولما أن الضلال ـ كما أسلفنا ـ طريق الهلاك، لأن المسلمين إذا تحوّلوا

عن طريق الهداية، الذي هو قوام عزهم وتمكينهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة: فمعنى ذلك، أنهم رضوا بما هو على النقيض من ثمرات الهداية، فلا عزَّ ولا تمكين، ولا فوز برضوان الله، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وأيُّ هلاك كهذا الهلاك المدمّر الذي لا يُبقي ولا يَذَر!!

على أن الآية الكريمة، نبهت على أن هؤلاءاليهود ـ وهم يودون إضلال المسلمين، وإهلاكهم ـ ما يضلّون ويهلكون إلا أنفسهم وأتباعهم وأعوانهم. وفي الوقت نفسه، لا يشعرون؛ لا يدرون ولا يعلمون أنهم ممكور بهم، وأنهم فيما يصنعون ويحاولون من الأذية، واقعون في حمأة العماية عما هو مُعَدٌّ لهم من العقاب الشديد والعذاب الأليم، ناهيك عن افتضاحهم على رؤوس الخلائق، في الدنيا ويوم والدين.

ثم عادت بنا الآيات الكريمات، لتربط الحقيقة المشار إليها بجذورها، على صعيد العقيدة، فاليهود ضلُّوا، ومن بعدُ، ودُّوا لو يُضلّون المسلمين؛ وإذن فالرغبة في إضلال المسلمين وتسييرهم في طريق الهلاك والدمار، مرتبطة أيَّما ارتباط بظُلَم الضلالة التي ترين على قلوبهم والعياذ بالله، ولذلك جاءت الآية التي تلي، تحمل صورة واضحة للإنكار عليهم، وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله، وهم عالمون بصدقها، وموقنون في قرارة نفوسهم، بأن ما يدعو إليه محمد ﷺ هو الحق.. ولكنه الحسد والبغي والانحراف المتأصل في النفوس؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾** ﴾ [آل عمران: ٧٠].

هذا واحد من الجذور التي ينتمي إليها طغيانهم، وَوُدُّ هم لو يسير

المسلمون في الطريق الضالة التي توردهم موارد الهلكة والردى؛ يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لم تكفرون، لم تجحدون بما في كتاب الله الذي أنزله إليكم على ألسن أنبيائه من آيه وأدلته، وأنتم تشهدون أنه حق من عند ربكم؟ ومن ذلك ما جاء في صفة محمد ﷺ، وأحقية ما يوحىٰ إليه من دين الإسلام. قال قتادة – رحمه الله –: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يقول: تشهدون أن نعت محمد نبي الله ﷺ في كتابكم، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ﴿النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

كما روى أبو جعفر عن الربيع في معنى الآية أيضاً: تشهدون أن نعت محمد في كتابكم، ثم تكفرون به ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه عندكم في التوراة والإنجيل «النبي الأمي».

والذي روي عن ابن جريج: أن المعنى: يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون أن الدين عند الله الإسلام، ليس لله دين غيره.

ونتابع مع الكلمات الهاديات، كشفها عن جذور الرغبة في الإضلال عند اليهود، وأن ذلك امتداد لعدوانهم على الحق، مع علمهم بأنه الحق، فكأنهم ـ لضلالهم المتشعب الملقي بجرانه على النفوس والقلوب ـ لا يريدون لأحد أن يهتدي، بل يودّون لو ارتد المسلمون عن دينهم، ودارت عليهم دائرة السَّوء في الدنيا والآخرة... نتابع الكشف عن تلك الجذور الضاربة في العقول والقلوب، لنرى أن قول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ

تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يتلوه قوله جل ثناؤه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١].

إنها لمحة من لمحات الإعجاز في هذا الكتاب الكريم... هنالك خبث ومكر ـ على الصعيد الفكري ـ يصحبان الكفر بالحق، مع العلم أنه الحق ـ كما نصَّت عليه كتبهم التي يزعمون الإيمان بها ـ وكان من ثمرة الخبث والمكر، لَبْسُ الحق بالباطل، خلطٌ بين الحق والباطل قد يؤدي ـ على وهمهم ـ إلى تمييع القضية الأولى، قضية الإيمان بمحمد ﷺ وبما أوحي إليه.. إلى جانب ما يمكن أن يدخل على بعض البسطاء الذين تعوزهم المعرفة الأصيلة، من أن الحق قد يكون هنا، وقد يكون هناك. فأهل الكتاب يلبسون الحق بالباطل، يخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية، ويسلكون سبيل النفاق، مع أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، ولا يقبل ديناً غيره، ويكتمون الحق.. يكتمون شأن محمد ﷺ والإسلام، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

هكذا تضع الآية الكريمة يد الإنسان ـ عبر العصور ـ على هذه الحقيقة ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ويبدو أن القوم سلكوا طريقاً تتواءم مع الإنكار والجحود، وربما كانت شركاً يقع فيه المسلمون، فيتحولون عن دينهم وتحلُّ بهم القارعة، ذلك أنهم ـ كما أسلفنا من قبل ـ لجؤوا إلى النفاق فبدؤوا يظهرون بألسنتهم من التصديق بما جاء به محمد ﷺ، غير الذي تنطوي عليه قلوبهم من الجحود والكفران، ووراء الأكمة في ذلك ما وراءها. فقد روي

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: قال عبد الله بن الصيِّف وعدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدوة ونكفر به عشية، حتى نلْبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ويبدو أن حركة أعداء الله، كانت دائبة على الصعيد الفكري، وكان لبس الحق بالباطل واحدةً من دعائمها.

وليت أنّا نتدبر ما جاء في كتابنا حق التدبر؛ إذن لأصبحنا أكثر وعياً لخلائق اليهود ومن يظاهر اليهود، ولكان في مقدورنا تجاوز الواقع الذي لا نغبط عليه، إلى واقع نكون أصحاب الكلمة فيه ويومئذ تستعلن الحقيقة من جديد، وينحسر ما كان من لبس الحق بالباطل، بعد أن يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين.

وينافقون.. ليضلوا عن سبيل الله

لا ينكر منصف أن القراءة المتدبرة الواعية للقرآن الكريم، وما تنزّل من آيه في شأن من همُّهم الصَّدُّ عن سبيل الله، ومناصبتُه أهل الحق العداءَ في شتى الميادين.. لا نكرانَ في أن ذلك كفيل ـ بعون الله ـ إذا خلصت النيات، وصدقت العزائم، أن يخرج بالمسلمين، إلى حيث يمسكون بعاتق الميزان في معركة التحديات التي يواجهون على ساحتها اليهود وأعوانَ اليهود، ويملكون القدرة على أن يقولوا ويفعلوا، ويأخذوا بأسباب القوة والتمكين بذاتيةٍ وأصالةٍ، بتميُّزٍ يعيدهم إلى ما كانوا عليه من القيادة والسيادة، يوم كانوا منقادين لكلمة الإسلام، وكانت مرضاة الله ورسوله أعز ما يطلبون.

أقول هذا، وأنا بسبيل أن أعيد إلى الذاكرة، ما كشفت عنه آيتان كريمتان في سورة آل عمران هما الآية السبعون والآية الحادية والسبعون، من جذور يرتبط بها ما يودُّه اليهود ـ وأهل الكتاب بعامة ـ من أذى المسلمين، ومن ذلك أن يضلُّوا فيهلكوا.

والآيتان المعنيتان هما قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ وقد سبق ذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران: ٦٩].

فهؤلاء الذين ودُّوا لو يضلون المسلمين، يزينون لهم طريق الباطل فيتحولون عن الحق فيهلكوا، وأخبر الله أنهم ما يضلون إلا أنفسهم وأتباعهم، وما يشعرون بما هو معد لهم من العذاب الأليم، والخسران المبين.

هؤلاء الضالون المضلون، هم كافرون بمحمد ﷺ وما أُنزل على محمد، وكفرهم هذا: ليس عن جهل أو غباء، ولكنه كفر عنادٍ متأصل في النفس وصورة عن الحسد والبغي على المسلمين.

فهم يكفرون بآيات الله مع علمهم بأن كتبهم قد أثبتت أوصاف محمد ﷺ ودعت إلى الإيمان به، وبما جاء به، على شكل لا يقبل الاحتمال... كان لهم هذا الموقف وهم يتعالَون على الناس بأنهم أهل كتاب وأنهم يعلمون ما لا يعلم غيرهم، وأن لهم الأفضلية في ميدان الفكر، وفلسفة التاريخ، والقدرة على معرفة الحق من الباطل. ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾.

وجاءت الآية التالية ـ كما مر بنا قبل ـ لتضع أيدينا على أنهم يلبسون الحق بالباطل، ويخلِطون الإسلام باليهودية والنصرانية، وترى النفاق اليهودي وسيلة من وسائل الإضلال والتغرير بالآخرين. وكلمات عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – حبر هذه الأمة تؤذن ـ كما روى الطبري ـ بأن عبد الله بن الصيِّف وعديّ بن زيد والحارث بن عوف قال بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلْبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعوا عن

دينهم، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ إلى قوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والآيات التي عناها ابن عباس هي قول الله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣].

والحق أن هذه الواقعة ـ كما يخبر عنها هذا العالم الكبير من علماء الصحابة وأحد العبادلة الأربعة ـ ذات دلالة واضحة على النهج الذي حاول اليهود سلوكه مرحلة بعد مرحلة، بغية المضارّة بالمسلمين وتحويلهم ـ لو أمكن ذلك ـ عن طريق الإيمان والقوة والهدىٰ، إلى طريق الضلالة والضعف والردىٰ. فإذا كان قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ الآية، قد كشفت عما يودُّ هؤلاء الكفرة الفجرة للمسلمين، فإن الواقعة التي نومئ إليها والتي نزلت بشأنها الآيات المشار إليها ـ كما دلت الآية هذه ـ تكشف عن تجربة عملية، أراد اليهود أن يقوموا بها لعلها تجدي في إضلال المسلمين، تلك التجربة، هي سلوك طريق النفاق، كما تمالأ على ذلك أولئك النفر من اليهود عبد الله بن الصيِّف وعدي بن زيد والحارث بن عوف، حيث تداعوا ـ كما سبق ـ إلى الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ غدوة والكفر به عشية، حتى يلبسوا على المسلمين دينهم، لعلهم يقعون في شرك التقليد الأعمى، فيصنعوا كما صنعوا هم، فيرجعوا عن إيمانهم بالإسلام وتصديقهم بمحمد عليه الصلاة والسلام.

فنزلت الآيات تفضح صنيعهم، وتعرِّي نفاقهم، الذي قام على لبس الحق بالباطل، ولَبْسِ الإسلام باليهودية والنصرانية، والظهور بالمظهر المخالف لما يبطنون ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم على علم به، وقناعة بالدليل الذي قام عليه.

وأنت تلاحظ ـ بجانب ما رأينا عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أن قتادة ـ فيما روي عنه ـ يقول في معنى الآية: (لم تلبسون اليهودية والنصرانية بالإسلام وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره: الإسلام، ولا يجزي إلا به؟) وقد روي نحو ذلك عن الربيع وابن جريج رحمهم الله أجمعين. على أنه قد روي عن ابن زيد في قول الله عز وجل: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: الحق: التوراة التي أنزل الله على موسى والباطل: الذي كتبوه بأيديهم. ويمكن القول بأن هذا كلَّه قد كان من اليهود، فقد كتبوا بأيديهم كلاماً من عند أنفسهم، فزعموا أنه التوراة أو من التوراة، وخلطوا بين الحق والباطل أيضاً، حيث لبسوا هم وأهل الكتاب الآخرون: اليهودية والنصرانية، بالإسلام.

أما الحق الذي كتموه: فهو ما في كتبهم من نعت محمد ﷺ ومبعثه ونبوته وهم يعلمون أن ما يكتمونه هو الحق، وأنه من عند الله. قال قتادة: قوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كتموا شأن محمد وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وروي مثل ذلك عن الربيع. وقال ابن جريج: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ الإسلام

وأمر محمد ﷺ وأنتم تعلمون أن محمداً رسول الله وأن الدين هو الإسلام.

تلكم هي البدايات. وجاءت الوقائع ـ عبر التاريخ ـ لتؤكدها أوضح تأكيد. ومطلوب من الأمة الإسلامية اليوم، أن لا تتخذ هذه الحقائق ـ وهي تعاني ما تعانى من ويلات يهود وأعوانهم ـ وراءها ظهرياً. وبذلك تدفع عن نفسها وعن الإنسانية وبال شر مستطير، لا يخفى على منصف من بني الإنسان. ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

obeikandl.com